البرتغاليون والدين في غزوهم للشرق

الحلقة الثانية(*)

الأستاذ علي غنام

مقدمة:

جرت العادة ان يقرن الغزو البرتغالي بالدين بوصفه هدفا من بين اهدافهم الرئيسية، إن لم يتقدم عليها، بل وربما عد هدفهم الوحيد! وقلما يخلو مصدر من اشارة كهذه حتى شاع امر هذا الزعم. ويرجع شيوعه الى اسباب تأتي في مقدمتها ضخامة «العدة» البرتغالية الدينية، إن جاز التعبير. علاوة على أن هناك سببين آخرين: أولهما، عدوى المصادر البرتغالية والغربية التي تشكل المصدر الاساس الوحيد عن تلك الحقبة. وثانيهما، اللبس الحاصل لدى بعضهم بين الوسيلة والهدف. ولذا كان لابد من تحري حقيقة هذا الامر من خلال القاء نظرة على العدة نفسها، وما أفضت إليه الممارسات البرتغالية، أو بالأحرى المطابقة بين الاقوال والاعمال.

العدة البرتغالية الدينية

كان لهذه العدة ادوات عمادها: المزاعم الدينية، ودعم رجال الدين لها، وميراث

(*) نشرت الحلقة الاولى في العدد الاول المجلد ١٩ من مجلة الخليج العربي لعام ١٩٨٧.

حروب شبه جزيرة إيبيريا بين المسيحيين والمسلمين، والحروب الصليبية، والأساطير والخرافات... الخ.

اولاً: المزاعم:

منذ بدء التاريخ والديانات عرضة لعبث بعض الزعماء الدينيين أو الدنيويين أو الاثنين معا، ولم تسلم منها واحدة قط، لأن امثال هؤلاء لايفهمونها إلا على أنها أداة لتمويه أهدافهم، وتبرير تصرفاتهم، ومادة لشحذ همم أتباعهم، ووسيلة لتطويع خصومهم ومعارضيهم، فالدين دائما يكيف وفق اهدافهم.

أما التعصب الديني، فهو حالة من الهياج يفارق فيها الإنسان عقله، وماكان، في يوم من الأيام، تعبيرا عن ايمان عفوي صادق منزه عن الأغراض إلّا لدى بعض البسطاء. ويتسم التعصب، فيما يتسم، بأنه سريع الزوال، بحيث يكاد أن يكون، في تاريخ الأمم والشعوب، كلمح البرق مالم يغذ بخصومات متجددة، لأنه حالة من التوتر الشديد التي لا يحتملها البشر لآماد طويلة. كما أنّ الفجوة التي يخلفها بين الأقوال والأعمال غالبا ما تكون شاسعة جدا مما يعجل في تقصير أمده. على أنه غالبا مايكون من نتاج أوضاع مثيرة تفضي الى ظهور أناس يستغلونها لمصادرة عقول العامة والتصرف بهم على النحو الذي يبتغون، فدون مثل هذه المصادرة لايمكن لهم ان يتصرفوا بالاتباع كيفما يشاؤون، فما كان مثلا بمقدور ملك البرتغال أو غيره أن يقول لجنوده وبحارة اساطيله: اذهبوا الى الشرق واسرقوا ثروته، واقتلوا ابناءه، واحتلوا أراضيه! كان عليه إذاً، أن يقول لهم غير ذلك ليغطي الهدف، فكان الدين واحداً من ضحاياه. كان عليه ان يقول لهم مثلاً: أنتم الصليبيون المدافعون عن المسيحية والرافعون لواءها والمبشرون بأنجيلها والموعودون بنعيمها في الدنيا والآخرة... الخ!! أو لم يقل المؤرخ البرتغالي «جوا دي باروس Joao De Barros»: «لقد اقيمت المملكة بدماء الشهداء وبدماء الشهداء امتدت رقعتها فوق الكرة الارضية[١٧]». واذا كان الشق الاول من هذا القول مفهوما تماما، فأن الشق الثاني منه لايعبر عن جوهر الحقيقة، اللهم إلا اذا عد في عداد الشهداء من لقوا مصرعهم من المجرمين الذين اطلق سراحهم من السجون لزجهم في معمعة الاكتشافات والحملات العسكرية، والمرتزقة المأجورون من غير البرتغاليين، والمغامرون من اجل التكسب! وعد القتل

---

(١٧) المصدر:

Rev Alex J.D D'orsey BD, Portuguese Discoveries Dependencies and Missions In Asia And Africa, p.5, W.H. Allen & Co. Limited, 1893.

ايضا في سبيل السطو والاغتصاب والعدوان شهادة! ومع ذلك، لايمكن للمرء ان يتوقع من اي برتغالي عموما، وخصوصا آنذاك، إلاّ أن يقول ماقاله دي باروس. بل وبلغ الامر بالمؤرخ البرتغالي المعاصر لـ «هنري الملاح» وكاتب سيرته أن سماه «الامير المقدس»[١٨]! وهذه تسمية دينية صرفة، وفيها مايوضح الانطباع السائد او الطابع المطلوب اضفاؤه على السياسة التي اختطها هنري الملاح، مهندس الاكتشافات والاستعمار البرتغالي. وقدم المؤلف نفسه، «كوميز ايانيز دي ازورار Gomes Eanes De Azurara»، خمسة اسباب لرغبة الامير هنري الملاح في مواصلة أبحاثه وهي :

١ . معرفة الارض الموجودة وراء جزر الكناري.
٢ . استطلاع امكانية وجود أي ميناء مسيحي يمكنه بواسطته ان يحقق تجارة مربحة.
٣ . تقصي امتداد اراضي العرب (مورس) بدقة.
٤ . اكتشاف أي عاهل مسيحي يرغب في تقديم العون له (لهنري) في حروبه ضد الكفار.
٥ . نشر «الدين المقدس لسيدنا يسوع المسيح، وجلب كل النفوس الراغبة في النجاة من الخطيئة اليه[١٩]».

وهكذا يلاحظ المرء وبيسر أن هذه الاسباب تتمحور اساسا حول الزعم الديني. وتعزيزا لهذا المنحي طبعت أوجه المشروع الاستعماري بمثل هذه المظاهر، ومن ذلك مثلا: تصيير هنري الملاح رئيسا لـ «اخوية المسيح Order of Christ[*]» الرهبانية العسكرية منذ عام ١٤٢٠، وتسخير مواردها ـ بجانب موارد أخر ـ في خدمة مشروعه، ووضع شارة صليب أحمر على أشرعة جميع سفنه[٢٠]، واطلاق التسميات الدينية على آشياء كثيرة، ومنها، السفن البرتغالية التي زودت في بعثاتها وحملاتها برجال دين. . . الخ .وعندما قام أخوه «دون بدرو(بطرس)Don Pedro[**]» برحلة طويلة دامت اثني عشر عاما (١٤١٦ ـ ١٤٢٨) لزيارة البلدان الرئيسية في اوربا وغرب

---

(١٨) المصدر: Ibid., p. 16.

(١٩) المصدر: Ibid., p. 15 - 16.

(*) اسست هذه المنظمة الدينية العسكرية من قبل الملك السادس للبرتغال، دينس Dinis الذي حكم بين عامي ١٢٧٩ ـ ١٣٢٥، وذلك في عام ١٣١٩. وتجدر الاشارة الى انها كانت ذات حول وصول.

(٢٠) المصدر: Britannica, vol. 5,p.852, year 1985.

(**) تجدر الاشارة الى انه حصل على نسخة من كتاب رحلات «ماركو بولو» اثناء زيارته لايطاليا، فأهداها لاخيه «هنري الملاح».

اسيا في محاولة منه لتشجيع مشروع شقيقه هنري[٢١]، كانت **وجهته الاولى فلسطين، وبعد ان زار الاماكن المقدسة** شرع في زيارة البلدان الأخر[٢٢]. وفي اختيار الوجهة هذه لبدء الرحلة دلالة واضحة لاتخفى على أحد.

والحق أن الملوك البرتغاليين من أسرة «افيز A viz»[*] والمسؤولين في عهدهم قد مضوا اساسا على السياسة التي اختطها هنري الملاح بوصفها واجبا دينيا مقدسا! فعلى أثر عودة كابرال من الهند عام ١٥٠١ ذكر: «أن الملك عمانوئيل[**]، في لشبونه، كان يبذل كل مابوسعه لوضع حماسته في نشر الدين موضع التنفيذ الى حد انه شعر بأن نشره كان سياسة بقدر ماهو واجب، فالرعايا اكثر ميلا الى طاعة عاهل ينشر دينهم ويحميه»[٢٣]. وفي هذا مايسلط الضوء على الزعم الديني بوصفه أداة للتغطية والتعبئة معا.

وفي محاولة لتسويغ اللقب الطنان الذي اتخذه عمانوئيل لنفسه اثر اكتشاف الطريق المؤدي الى الهند أوضح المؤرخ البرتغالي للقرن السادس عشر، جوا دي باروس، ان البابوات «هم أرباب كونيون مفوضون بتوزيع البلدان التي لاتخضع لطاعتهم على المخلصين للكنيسة الكاثوليكية[٢٤]». ولابد ان ملوك البرتغال قد زينوا لانفسهم بأنهم وحدهم المخلصون لها حتى تصوروا انهم «حملة لواء الايمان»[٢٥]. وقد عقب السيد

---

(٢١) المصدر : Britannica, vol. 3,p. 438, year, 1985

(٢٢) المصدر: F. C. Danver, The Portuguese In India, vol. I, p. 20, London: W.H. Allen & Co. Limited, 1894.

(*) اسس حكم هذه الاسرة (١٣٨٣ - ١٥٨٠) جوا (حنا) الاول الذي لقب بألقاب، منها: جوا العظيم، وجوا النغل لانه ابن غير شرعي للملك بدرو الاول (١٣٥٧ - ١٣٦٧) الذي ينتمي الى اسرة بيرگندي (Burgundy) مؤسسة البرتغال واستقلاله عن اسبانيا وحاكمته مابين عامي (١١٢٨ - ١٣٨٣).

(**) عمانوئيل: لقب ليسوع وتفسيره «الله معنا».

(٢٣) المصدر: Rev Alex J.D. D'Orsey, op. cit., p. 77.

(٢٤) المصدر: C.R. Boxer, Race Relations in the Portuguese Colonial Empire 1415-1825 p.3, Clarendon Press, Oxford, 1963.

(٢٥) المصدر: S.G.Payne, A History of Spain and Portugal, vol. I, p. 229, The University of Wisconsin Press, 1973.

«بوكسر» على ماذكره «باروس» بقوله: «مهما كانت صحة هذا الزعم من الناحية اللاهوتية، الا انه ولاريب يعكس الاعتقاد الراسخ لدى البرتغاليين بأنهم كانوا اصلا فاتحين صليبيين مؤهلين ليفتحوا أو يسيطروا على البلدان الاسلامية والوثنية من المغرب الى مندناو»[٢٦]. وعلى اثر تأسيس الرهبانية اليسوعية وجد الملك جوا (حنا) الثالث (١٥٢١ ـ ١٥٥٧) ضالته فيها، معتقدا بـ «ان عليه الآن (بعد نحو أربعين عاما من غزو البرتغاليين للشرق) أن يكون قادرا على اشاعة نور الايمان الصحيح في ممتلكاته (مستعمراته) واخضاعها لطاعة مفتدينا يسوع المسيح وكنيسته المقدسة»[٢٧].

ولو كان جوا واسلافه ينشدون ذلك حقا لما غابوا مثل هذه الغيبة الطويلة! فأينهم عن ذلك طوال هذه المدة؟ بل وهل كانوا ينشدون حقا اخضاع المستعمرات أو بالأحرى عامة «رعاياهم» لطاعة السيد المسيح وكنيسته ام لطاعتهم؟ هذا ماقد نجد اجابة عنه لدى خليفة باروس، وهو المؤرخ العسكري «ديوكو دي كوتو Diogo do Couto» الذي امضى معظم حياته في الشرق، حيث اكد من خلال تجربته الشخصية الصلة الوثيقة بين الصليب والتاج عندما كتب: «ان ملوك البرتغال هدفوا دائما من فتحهم للشرق توحيد السلطتين الدينية والدنيوية الى حد ان الواحدة منها يجب ألا تمارس قط دون الاخرى»[٢٨]. وعليه، فأن مثل هذا الدمج لايمكن ان يؤول إلا الى تسخير الدين في خدمة السلطة السياسية التي يترأسونها، وبخاصة في ظل تقهقر سلطة البابا على العالم المسيحي، لانهم أولا وآخراً ملوك. وهم بهذا الدمج ينشدون تحقيق أمور ثلاثة: أولها، حسم مسألة الرئاسة لصالح السلطة الزمنية في صراعها الطويل مع السلطة الدينية المعتدة بنيابة البابا للسيد المسيح وكمال سلطته وحقه في الرئاسة في السماء وعلى الارض[٢٩]، انطلاقا من قول السيد المسيح لسمعان (بطرس) بن يونا: «انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات. فكل ماربطته على الأرض يكون مربوطا في السماوات وكل ماحللته على الارض يكون محلولا في السماوات»[٣٠]. وثانيها، احتواء مخاطر وجود

---

(٢٦) المصدر: C.R. Boxer, OP. cit., p. 3.

(٢٧) المصدر: Rev. Alex J. D. D'Orsey, op. cit., p. 110.

(٢٨) المصدر: Ibid.

(٢٩) تاريخ الحضارات العام، ادوار بروى، الجزء الثالث، ص ٤٥٨، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس ١٩٨٦.

(٣٠) انجيل متى، الاصحاح السادس عشر.

سلطة دينية مستقلة. وثالثها، اطلاق يد السلطة الزمنية في التصرف بالدين لخدمة اغراضها، وعلى رأسها ارهاب اي معارضة لهم ووصمها بأنها خارجة على الارادة الالهية!

على ان ملوك البرتغال لم يكونوا أول ولا آخر من عمل لهذا أو سعى إليه، فها أكثر اولئك(*). ولعل خير مثال يساق بهذا الصدد مانسب الى الملك الفارسي، اردشير الاول (٢٢٤ - ٢٤١)، مؤسس الدولة الساسانية، حيث جاء في عهده مانصه:

«واعلموا ان الملك والدين اخوان توأمان، لاقوام لاحدهما إلا بصاحبه، لان الدين اس الملك وعماده، ثم صار الملك بعد حارس الدين، فلابد للملك من اسه، ولابد للدين من حارسه، لان مالا حارس له ضائع ومالا اس له مهدوم. وان رأس ما اخاف عليكم مبادرة السفلة اياكم الى دراسة الدين وتلاوته والتفقيه فيه، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به، فتحدث رياسات مستسرات في من قد وترتم وجفوتم وحرمتم (واخفتم) وصغرتم من سفلة (الناس) والرعية وحشو العامة.

واعلموا انه لن يجتمع رئيس في الدين مسر ورئيس في الملك معلن في مملكة واحدة قط الا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك، لان الدين اس والملك عماد، وصاحب الاس اولى بجميع البنيان من صاحب العماد»(٣١). وهذا غني عن الايضاح، ففي كلمات: «توأمان» و «حارس» و «سفلة» مافيه الكفاية، ومع ذلك فالاولى تعني ان للتوأمين «ربا» واحدا، لابد ان يكون الملك نفسه! والثانية، تقضي بأن المحروس لابد ان يكون تحت رحمة الحارس. اما الثالثة، فتعني ان تفسير الدين

(*) ومن ذلك مثلا، ماجاء في خطبة مشهورة لابي جعفر المنصور بمكة: «ايها الناس: انما انا سلطان الله في ارضه، اسومكم بتوفيقه، وتسديده وتأييده، وحارسه، على ماله، اعمل فيه بمشيته، وارادته، واعطيه بأذنه، فقد جعلني الله عليه قفلا، ان شاء يفتحني فتحني لاعطائكم، وقسم ارزاقكم، فأن شاء ان يقفلني عليها اقفلني.. الخ». وهذا يعني انه لا سلطان لغير سلطانه.

(٣١) الدكتور احسان عباس، عهد اردشير، ص ٥٣ - ٥٤، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

وتأويله والفتيا فيه امر مناط بالسلطان.(*).

والحق انه كان ومازال من المستحيل تعايش سلطتين مستقلتين او أكثر في ظل حكومة مطلقة مهما كان لقب رأسها، لان السلطة المطلقة لاتقبل القسمة. ومن هنا وضع الدين في خدمة التاج والاستعمار البرتغاليين، والحقت السلطة الدينية بالسلطة الزمنية.

ثانيا: رجال الدين:

على ان توظيف الدين في خدمة الاستعمار البرتغالي كان يقوم أيضا على دعامة اخرى ملازمة تماما لهذه، الا وهي كسب تأييد ومساندة رجال الدين وعلى رأسهم المقام البابوي، فما كان لهذه المزاعم والدعاوى ان تحدث الاثر المطلوب في نفوس الاتباع ومن يراد تجنيدهم الا بنصرة هؤلاء. وكان على الملوك البرتغاليين ان يقولوا لبابوات روما، بشأن اهدافهم، قولا مشابها لمزاعمهم آنفة الذكر، ان لم يكن اكثر ورعا منها، وذلك لنيل رضاهم وبركتهم. وعليه، سعى الملوك البرتغاليون منذ بدء مشاريعهم التوسعية للحصول على موافقة ودعم بابوات روما لتأييد ماكسبوا، بل وماسيكسبون من اراض غير مسيحية. وكان لهم مارادوا، ومن ذلك مثلا: ان البابا

(*) هناك ثلاث ظواهر صارخة تستوقف من يقرأ تاريخ فارس، ومنها ظاهرة توظيف الدين في خدمة السلطة السياسية من قبل ملوك فارس ذوي الباع الطويل في تقليبهم على دياناتهم ورجالها. فبينما كانت «الزرادشتية» ديانة رسمية للدولة الاخمينية والساسانية، تبنى شابور (٢٤١ - ٢٧٢م) ماني (٢١٦ - ٢٧٧) ودينه لمسايرة روح عصره ومقتضيات سلطته. ولما ثارت المانوية الطبقة الاستقراطية عليها للفقراء، واتباع الديانات الاخر بشقيها دياناتهم. انقض عليها بهرام الاول (٢٧٣ - ٢٧٧) في عام وفاته، فسجن ونبيها ماني وقتله وصلبه على بوابة مدينة جند يسابور، وفي روايات اخر محروقة، انه سلخ جلده وحشاه تبنا وعلقه على البوابة. وعندها اعيدت الزرادشتية الى مكانتها. وعندما تولى قباذ الاول، ذو المهدين (٤٨٨ - ٤٩٦ و ٤٩٩ - ٥٣١)، الملك، تبنى مزدك ودعوته في صراعه ضد «سلطة الاستقراطية المدعمة برجال الدين الزرادشتي». ولما انحاز مزدك الى كاووس ضد اخيه كسرى (٥٣١ - ٥٧٩)، دبر الاخير خطة للتخلص منه، فكانت الندوة الدينية المشهورة، وفيها قتل «مزدك وكل من معه من اصحابه... ثم استبيح دمهم فطوردوا وقتلوا وصودرت اموالهم وحرقت كتبهم». وعادت الزرادشتية الى الواجهة من جديد، لان الملك لا «يستقيم» كما يبدو إلا بالاستقراطية المروضة. اما الديانة المسيحية، فقد اضطهدت اكثر من مرة، واعترف بمساواتها بالاديان الاخر اكثر من مرة ايضا. وذلك تبعا لعلاقة الدولة الفارسية مع الدولة البيزنطية من جهة، ونفوذ رجال الدين الفرس من جهة اخرى. (راجع: تاريخ ايران القديم، للاساتذة: عله باقر وفوزي رشيد ورضا جواد هاشم، وكتاب «زرادشت الحكيم» لمؤلفه حامد عبدالقادر، وماني ودينه، لحسن ظهي زاده، مجلة الدراسات الادبية الستة الرابعة، ص ١٩٥ - ٢٨٤).

قد تبنى قرار تعيين هنري الملاح رئيسا لـ «اخوية المسيح»، بل واعاد هيئة فرسان الداوية(*) الى البرتغال(٣٢). وعندما رغب هنري الملاح في «اقتناء كنوز الكنيسة ليوزعها بين الربابنة المقدامين ممن عزم على ارسالهم الى البلدان الصحراوية، بعث سفارة الى البابا مرتينس الخامس (١٤١٧ - ١٤٣١) ليبلغه بالاكتشافات المدهشة التي تحققت تواً». وفي عام ١٤٣٦ منح البابا اوجينيوس الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) الامير هنري ومن سيخلفه «ليس فقط البلدان التي تم اكتشافها انذاك، وانما كل مايمكن اكتشافه فيما وراء رأس بوجادور مهما كان اتساعه»(٣٣). وعدت هذه، البراءة الاولى. اما البراءة الثانية، فقد منحها البابا نيقولاوس الخامس (١٤٤٧ - ١٥٥٥)(٣٤). وبعد ان قرر هنري نحو عام ١٤٤١، ارسال حملات كثيرة لـ «مكافحة اهالي الساحل الافريقي الكفار»! أبلغ البابا بما عزم عليه و «توسل اليه ان يمنح التاج البرتغالي حقا ابديا في اي ارض يمكن ان تكتشف فيما وراء رأس بوجادور والى الانديز Indies، مؤكدا لقداسته، **على وجه الخصوص، ان تخليص هذه الشعوب من الخطيئة كان الهدف الاساس من وراء اعماله**»(٣٥). ولما عدت الاكتشافات قيمة من قبل البابا ومجمع الكرادلة صدرت براءة بابوية فورية طبقا لما طلب هنري الملاح، على ان هذه البراءة اكدت تباعاً من قبل البابا نيقولاوس الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) وسيكستس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤)(٣٦). وما ان اعتلى جوا (حنا) الثاني العرش (١٤٨١ - ١٤٩٥) حتى سارع الى ارسال سفرائه للبابا الجديد اينو قنتيوس الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) طالبا منحه براءة بابوية **بحملة صليبية مقدسة**، آملا ان يحقق بها مشاريع والده في محاربة الولايات الاسلامية لساحل البربر(٣٧). وكان له ماأراد.

(*) وهي واحدة من المنظمات التي ظهرت ابان الحروب الصليبية، و«تجمع بين القروسية والديرية او بعبارة اخرى بين الحياتين الحربية والدينية».

(٣٢) المصدر: Britannica, vol. 5, p. 852, year, 1985.

(٣٣) المصدر: Rev. Alex J.D. D'Orsey, op. cit., p. 16-17.

(٣٤) المصدر: Ibid.

(٣٥) المصدر: F.C. Danvers, The Portuguese In India, vol. I, p. 21, London, W.H. Allen & Co. Limited, 1894.

(٣٦) المصدر: Ibid.

(٣٧) المصدر: Rev Alex J.D. D'Orsey BD, op. cit., p.18.

وعلى الرغم من ان الملك عمانوئيل (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) قد اتخذ لقبه الطنان: «سيد الفتح والملاحة والتجارة في الحبشة والجزيرة العربية وفارس والهند» قبل ان يستولي على واحدة من هذه البلدان، الا ان البابا قد صادق على هذا اللقب (*)! وفي عام ١٥١٤ بعث الملك البرتغالي نفسه سفارة الى البابا الجديد لاون العاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١)، وبصحبتها هدية منه، وهي عبارة عن فيل (من كوا) محملا بأنفس الهدايا. وعندها استقبل البابا البعثة هذه بمظاهر استثنائية من الحفاوة والتكريم، و «منح البرتغاليين ماطلبوا» من تخويل رسمي، ازاء العالم، بأمتلاكهم لما استولوا عليه في الشرق[٣٨].

والخلاصة ان البابوات المتعاقبين دأبوا منذ القرن الخامس عشر وعلى مدى ثلاثة وثمانين عاما في منح التاج البرتغالي سلسلة من البراءات والرسائل والهبات البابوية[٣٩] التي خولته حق ملكية ماكتشف وما سيكتشف من اراض غير مسيحية، وحقه في رعاية التبشير والادارة الكنسية ضمن امبراطوريته فيما وراء البحار[٤٠]. ولما اظهر البابا اسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣)، وهو من اصل اسباني، ميله نحو اسبانيا، في اعقاب اكتشاف كولومبس لأمريكا، وخصّها بكل الاراضي المكتشفة او التي ستكتشف على بعد اكثر من (١٠٠) فرسخ غرب او جنوب جزر الرأس الاخضر، ثارت ثائرة البرتغاليين، لان هذا المرسوم حرمهم من حقهم المعترف به من قبل البابوات السابقين ومنذ امد بعيد(**)وخدده الآن بالمياه الافريقية تاركا كل «الانديز Indies» المفترضة(***)من حق قشتاله[٤١]. وعندها تحرك ملك البرتغال، جوا الثاني لمفاوضة القشتاليين، و «بفضل الحجة والرشوة حصل على تسوية مغايرة تماما» لذلك المرسوم البابوي[٤٢]، وكانت اتفاقية توردسيس في السابع من حزيران عام ١٤٩٤

(*) ذكر «لوريمر» ان «عمانوئيل» قد اتخذ هذا اللقب عام ١٥٠٥، في حين ذكر «بوكسر» انه اتخذه عام ١٥٠١، ولربما يعود هذا التفاوت الى واقعين: اتخاذه لقبا من ناحية، ومصادقة البابا عليه من ناحية اخرى.

(٣٨) المصدر: Ibid., p. 37.

(٣٩) المصدر: C.R. Boxer, op. cit., p.2.

(٤٠) المصدر: The New Cambridge Modern History, 1968, vol. III, p. 547.

(**) وتجدر الاشارة الى ان البابا نفسه قد منح لقب «الكاثوليكي» لـ «فرديناند الثاني»، وذلك في الثاني من كانون الاول عام ١٤٩٦، كما منحه، فيما بعد، لقب ملك اسبانيا بما فيها البرتغال، الامر الذي اثار الملك عمانوئيل واحتج عليه.

(***) على افتراض ان هناك ثلاث بلدان هندية، كما جاء في وصف ماركو بولو لها.

(٤١) المصدر: H.V. Liver more, A New History of Portugal, p. 131, Cambridge University Press, 1966.

(٤٢) المصدر: Ibid.

والتي صادق عليها البابا يوليوس الثاني (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) في عام ١٥٠٦(*). وقد قضت هذه الاتفاقية بتقسيم العالم غير المسيحي بين الدولتين بموجب خط وهمي يقع في المحيط الاطلسي على بعد (٣٧٠) فرسخا غرب جزر الرأس الاخضر في اتجاه الجنوب والشمال معا(**). وعليه «كانت كافة الأمم الأخر مقصاة عن الأراضي الجديدة. وكان البرتغاليون والاسبانيون مقتنعين بالطابع المقدس الذي يتميز به احتكارهم، فعاملوا التجار والرواد الأجانب معاملة القراصنة»(٤٣). وقد عزيت مثل هذه البراءات البابوية، فيما عزيت، الى رسالة مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني من عام ١١٩٩، أوضح فيها البابا إينوقنتيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) لبطريرك القسطنطينية «ان بطرس، حين سار على البحر ليذهب الى يسوع، قد عبر بهذا السلوك عن امتياز الخبرية الوحيدة الذي يوليها حق حكم الكون كله»(٤٤). كما و«أثبت بعض رجال القانون حق البابوات في تفويض احتلال الأراضي الحديثة الاكتشاف الى سواهم»(٤٥). غير أن الهولنديين والفرنسيين والانكليز لم يعترفوا بهذا التفويض ولابطابعه المقدس، بل انهم عدوا ومنذ البدء، القسمة البابوية هذه «اعتداء صارخا على حرية البشر، وتساءلوا: بأي حق يتولى البابا (وهو من اصل اسباني) تقسيم العالم الجديد بين الاسبان والبرتغاليين(٤٦)». ولذا نراهم قد تجاهلوا هذا الخط، بل وتجاهلوا معه مزاعمهم السابقة، حيث مضوا على نهج من انتقدوهم بالامس دون الاكتراث بحرية البشر والاعتداء الصارخ عليها!.

ملاحظة: للموضوع تتمة.

(*) توفي البابا اسكندر السادس في عام ١٥٠٣ وخلفه بيوس الثالث الذي توفي في العام نفسه، ثم خلفهما يوليوس الثاني.

(**) في اعقاب اكتشاف مضيق ماجلان عام ١٥٢٠ كشفت اسبانيا عن اطماعها في جزر الفلبين، فثار نزاع بين الدولتين، وكانت اتفاقية سرقسطة لعام ١٥٢٩، التي حددت الخط الفاصل بـ (١٧) درجة شرقي جزر مولوكس (تابعة لاندونيسيا حاليا). وبدا لخلت اسبانيا عن مطالبها لقاء (٣٥٠) الف دوقية، ومع ذلك استقرت في الفلبين ونشبت نزاعات مسلحة بين البلدين.

(٤٣) تاريخ الحضارات العام، رولان موسنييه، الجزء الرابع ص ٤٨١، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٧.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٤٨٠.

(٤٥) المصدر السابق.

(٤٦) التاريخ الأوروبي الحديث للكتورين: عبدالحميد البطريق وعبدالعزيز نوار، ص٥١، دار الفكر العربي، ١٩٨٢.